

جذور التفاوت الاجتماعي والاقتصادي في العالم

المفكر الفرنسي توما بيكيتي يفتح صندوق باندورا ويصدر كتابا جديدا مثيرا للجدل



بعد نجاح كتابه "رأس المال في القرن الواحد والعشرين"، الذي ترجم إلى نحو أربعين لغة، وبيع منه أكثر من مليونين ونصف مليون نسخة، نشر الفرنسي توما بيكيتي، مدير البحوث في المدرسة العليا للدراسات في العلوم الاجتماعية والأستاذ المحاضر بمدرسة الاقتصاد بباريس، كتابا جديدا بعنوان "رأس المال والأيدولوجيا" لفت الانتباه من جهة حجمه (1232 ص)، ومن جهة محتواه الذي أثار ولا يزال يثير جدلا واسعا. هنا محاولة لتلمس ما يحويه هذا الكتاب الذي يتناول سردية كبرى للتاريخ الإنساني، اقتفى فيها مؤلفها خطا رابطا هو التفاوت كبناء أيديولوجي، ويخلص إلى ضرورة تجاوز الرأسمالية.



أبوبكر العيادي
كاتب تونسي مقيم في باريس

يقال إنه قائم على الجدارة والاستحقاق؟ لقد عاشت عدة مجتمعات، شأن أوروبا تحت النظام القديم، والهند ما قبل المرحلة الاستعمارية، والصين الإمبريالية، وفق نظام ثلاثي قائم على التفاوت، حيث تتقاسم السلطة مجموعات، طبقة المحاربين التي تضمن احترام القانون والنظام، وطبقة كهنوتية وثقافية تضمن وظائف الإنتاج من غداء وكساء. وكانت الصعوبة التي تواجه تلك البنية تتمثل في إيجاد توازن بين طبقتين مهممتين تمك كل منهما الشرعية، ما يضطرها إلى القبول بالحد من نفوذها، كحال الكشترية في الهند، أولئك المحاربون الذين يمنحون البراهمان مكانة مميزة لضمان نمط مقنع من الاستقرار والنمو يدفع الطبقة الشغيلة إلى قبول الهيمنة. كذلك المجتمعات الأوروبية التي أوجدت تراتبية تقسم الفئات إلى ثلاث طبقات، طبقة العباد (ORATOIRES) وطبقة المحاربين (BELLATORES) وطبقة العمال (LABORATOIRES)، رغم أن تاريخ تلك المجتمعات حافل بالصدامات والاستثناءات، ومع بزوغ عصر الحداثة، لا سيما زمن الثورة الفرنسية، حلت مجتمعات المالكين محل المجتمعات الفالتيية، وتغيرت الأيدولوجيا، فتاب عن التأكيد على أن الاستقرار ينشأ من تكامل الأدوار في تناسق تراتبي، تأكيد آخر على أن حق الملكية صار مفتوحا للجميع، وأن المهمة الأساسية للدولة المركزية هي حماية ذلك الحق. بيد أن تقديس هذا الحق خلال القرن التاسع عشر إلى تفاوت مفرط لفائدة بعض المتنفذين، وشكل ظاهرة دعمها التوسع الكولونيالي والتنافس الشرس بين مختلف الدول الأوروبية. وكان من أثر تلك الدينامية أن دمرت المجتمعات الأوروبية نفسها بنفسها ما بين عامي 1914 و1945. تلك الأيدولوجيا التي يسميها الكاتب "ملكوية"، لم تصمد طويلا أمام الهزات والأزمات، فتركت المجال لمرحلة جديدة من المساواة، استقادت من صعود الضرائب التدريجية منذ 1920 وبروز سياسات اجتماعية ديمقراطية أكثر مساواة، كما حصل في الولايات المتحدة في عهد الرئيس روزفلت، فضلا عن إرساء الشيوعية في دول شرق أوروبا. تلك تلك منعرج جديد خلال الثمانينات تمثل في سياسة الملكوية الجديدة التي رأت النور في الولايات المتحدة وبريطانيا، وسارت على هديها عدة دول أخرى.

تحتاج كل المجتمعات البشرية إلى تبرير التفاوت الذي ينظمها، وتوفر أسبابه لمنع انهيار البناء السياسي والاجتماعي، ولو انعمنا النظر في أيدولوجيات الماضي، لوجدنا أنها لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها الراهنة. في "رأس المال"، كان بيكيتي قد بين كيف أدت الحربان العالميتان إلى انحسار كبير للتفاوت الموروث عن القرن التاسع عشر، وكيف عاد التفاوت بشكل خطير منذ ثمانينات القرن الماضي، ولكن الكتاب، باعتراف صاحبه، شابه عيبان. أولهما أنه تركز على الغرب وحده، وثانيهما أنه لم يلامس مسألة الأيدولوجيات السياسية التي قامت على التفاوت إلا أهون مس. لذلك انطلق في هذا الكتاب من معطيات مقارنة بالغة السعة والعمق، وسعى إلى تتبع المسار الاقتصادي والاجتماعي والفكري والسياسي الذي عرفته الأنظمة التي أقرت الاسترقاق والتفاوت، أي تلك التي تقسم النشاط الإنساني إلى ثلاث وظائف توافق المجالات الثلاث أي الديني والحربي والاقتصادي، وفقا للنظرية التي وضعها الفرنسي جورج دوميزيل، منذ الأنظمة الهندو أوروبية إلى الأنظمة الكولونيالية والرأسمالية المعاصرة، مروراً بالمجتمعات المألقة والكولونيالية والشيوعية والاشتراكية الديمقراطية.

التفاوت قديم قدم الحضارات (غرافيكس «الجديد»)

أو الهيمنة على المجتمع، فاصحاب الشهادت يطالبون باحترامهم، اعتبارا لسعة ثقافتهم، ويضيقون ذرعا بمن لا يقرؤون كتبهم ولا يصنعون إليهم. والشرعية الحربية هي أيضا لم تزل تماما، وإن تحولت في جانب منها إلى شرعية ريعية، على غرار ترامب وبرلسكوني ممن يعادون المثقفين ويقيمون شرعيتهم على مهارتهم المزعومة في عقد الصفقات. ويلتقي أصحاب هذه الشرعية مع دعاة الشرعية الأولى في استفادتهم من النظام الاقتصادي الحالي. بل إن اليسار البراهماني واليمين الريع يمكن أن يتحالفا، كما حصل في فرنسا حول ماكرون.

لقد قلب بيكيتي الدبك الماركسي شعب/غوغاء جعل الهيكلية الفوقية أي المؤسسات ونظم الحكم عاملا رئيسيا في منظومة التفاوت. وهو موقف يجعل القارئ يقبل على الكتاب من هذه الزاوية، أي من زاوية موقف أيديولوجي وسياسي، وهو ما لا ينكره بيكيتي إذ عرض في القسم الأخير من مؤلفه مقترحات سياسية راديكالية لتجاوز التفاوت، وتجاوز الرأسمالية في الوقت ذاته.

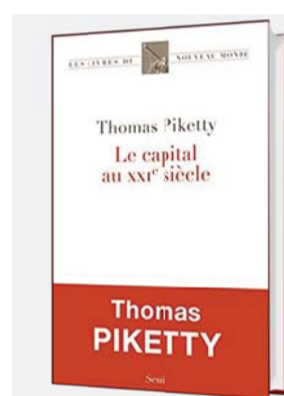
بقي أن نقول إن ما يعاب على بيكيتي أنه قال منذ البداية إن كتابه هذا يصح ما شابه كتابه الأول من تركيز على الغرب وحده، وإن مقارنته هذه سوف تكون عالمية الطرح، ولكن توسعه هذا لم يشمل سوى المجتمعات الهندية والصينية، إلى جانب المجتمعات الغربية الرأسمالية بطبيعة الحال، داعيا إلى الحد من التفاوت في تلك البلدان، بيد أنه غفل عن تفاوت صارخ أشد وأعرق، ونعني به ذلك الذي يميز البلدان الغنية عن البلدان الفقيرة، والشعوب الأوروبية عن الشعوب الإفريقية. ذلك التفاوت الذي أقامه الغرب وأمعن فيه عن طريق سياسات هيمنة شاملة على قدرات تلك الشعوب، ولا يزال يفرضها من خلال شركاته العملاقة، ومؤسساته التي تزعم الحياد كالبنك العالمي وصندوق النقد الدولي.

وماركس، قل أن عزز موقفه بمقولة لأحد الفلاسفة. حتى قراءته للثورة الفرنسية جاءت مطابقة للسردية الماركسية التقليدية. والجديد هنا هو ما يقترحه استنادا إلى تجارب الماضي، وربطه بين التاريخ وتلك المقترحات لخلق ما أسماه الاشتراكية التشاركية للحد من التفاوت، متمثلا في لاوعيه ما قاله روسو "من الموجود إلى الممكن، تبدو العقاب في نظري جيدة" ويبقى السؤال: كيف؟

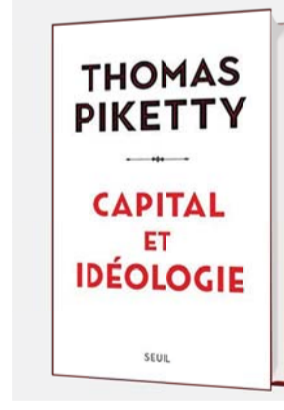
يقول بيكيتي "إن ما يعينني ليس معرفة ما إذا كان التغيير سيتم عبر انتخابات أو عقب مسار ثوري ضخم، وإنما مناقشة الطريقة التي يمكن أن ننظم بها المجتمع منذ صبيحة الغد". ويسوق مثلا عن الشيوعيين الروس الذين ثاروا عام 1917 دون التفكير بجدي في سبل إقامة العدل، فدكتاتورية البروليتاريا لا تصنع برنامج عمل، ذلك أنه يفضل صياغة مشروع اشتراكية تشاركية واجتماعية فيدرالية تقوم على التناوب والعدالة، كتقاسم حق التصويت بين الأجراء والمساهمين في رأس مال المؤسسة، كما هي الحال في السويد وألمانيا، أو وضع سقف لأصوات كبار المساهمين. يمكن أيضا وضع منظومة جباية سنوية متدرجة على الدخل والوراثة، وكذلك أداء سنوي على الملكية لا تتجاوز نسبتها 0.1 لنوعي الدخل المحدود، ومن 50 إلى 90 بالمائة للملكيات التي تقدر بعدة مليارات.

ويعتقد بيكيتي أن ذلك ممكن، مستشهدا ببعض المبادرات المماثلة في أوروبا والولايات المتحدة خلال القرن العشرين. ويؤكد أنه يطرح أفكارا، انطلاقا من تجارب معيشية، معلومة أو منسوبة، وسببها للمضي قدما، لتجاوز الرأسمالية والملكية الخاصة.

والخلاصة أن التفاوت قديم قدم الحضارات، وأن الأنظمة على اختلافها حاولت تطفيفه دون القضاء عليه لأنها تخضع في كل مرحلة لتلك القاعدة الثلاثية القديمة، التي لا تزال تجد آثارها في عصرنا الحاضر، حيث تسعى عدة مجموعات إلى البحث عن شرعية للحكم



التفاوت الذي يتغير تبعا للمراحل والأماكن، لا يأتي اعتبارا بل يستند إلى ما يسميه الكاتب «ذريعة صندوق باندورا» حيث يجب المستفيدين من التفاوت غيرهم من الباحثين عن حلول لإقرار المساواة بأن مساهم الراديكالي سيؤدي إلى الفوضى



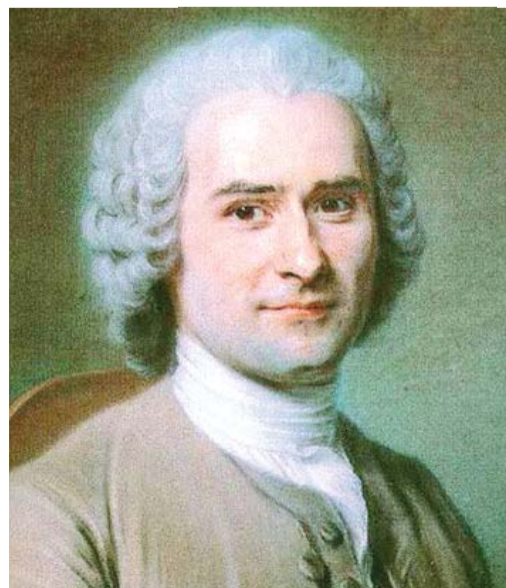
حتى محاولات ريفن وثاتشر لجعل التفاوت مطية لتنشيط النمو لم تات أكلها، فقد تراجع النمو بصفة ملحوظة، وتفاقم اللجوء إلى الدين حتى انفجار أزمة 2008.

ثم إن التفاوت الذي يتغير تبعا للمراحل والأماكن، لا يأتي اعتبارا بل يستند إلى ما يسميه الكاتب «ذريعة صندوق باندورا» حيث يجب المستفيدين من التفاوت غيرهم من الباحثين عن حلول لإقرار المساواة بأن مساهم الراديكالي سيؤدي إلى الفوضى. ويضرب مثلا على ذلك بطغمة عسكرية تسقولي على السلطة، فتتحالف مع من يمسه بالثقافة المكتوبة والثقافة الدينية، وتقترب نمطا من الاستقرار، فمن النادر عندئذ أن يجازف بعضهم لتغيير الواقع خوفا من العودة إلى الفوضى. ولكن القرن الثامن عشر، ثم القرن التاسع عشر شهدا من امتلكوا الجرة على نقد الأوضاع القائمة واقترح تجارب جديدة الت في النهاية إلى تقديس الملكية. فالتاريخ في نظر بيكيتي ليس فقط صراع طبقات كما كتب ماركس وإنغلز، بل هو تدريب مطرد على العدل، يمر حتما بصراع ما تكن أهميته، لا يكفي وحده لصنع نظرية عن الملكية والحدود والضرائب والترتبة. نفس الذريعة كانت حاضرة في مجادلات الثورة الفرنسية، حيث تمت المطالبة بإلغاء الامتيازات، ولكن أي امتيازات؟ فالعمال الفلاحون كانوا لا يزالون خاضعين للنبلاء، يعملون تحت إمرتهم دون مقابل، رغم إلغاء الرق في أوروبا. أي أن الثورة لم تلغ التفاوت، بل أعادت صياغته في لغة جديدة تقوم على تقديس الملكية.

لقد انطلق بيكيتي من فكرة أن تاريخ العالم هو تاريخ التفاوت (بصيغة الجمع) وحل جذوره الفلسفية والسياسية، فسعى إلى تفكيك تلك المبررات الأيدولوجية عبر استقراء العصور القديمة وإفراقاتها، ولكنه لم يستند إلا قليلا لآراء من خاض في هذه المواضيع قبله، فباستثناء توكفيل وحنا أرندت



بيكيتي.. تاريخ العالم هو تاريخ التفاوت



روسو.. من الموجود إلى الممكن، تبدو العقاب جيدة



ترامب.. الممثل الأبرز للشعبوية اليمينية الجديدة



ماكرون.. مثال عن تحالف اليسار البراهماني واليمين الريع